

الشرّ في تعابير بعض النصوص الكتابية

سارة الجويني حفيظ

(جامعة الزيتونة/تونس)

sarranour@yahoo.fr

انعكست معاناة الإنسان للشرّ باعتباره من الأفعال الإرادية المبطنّة بشيء من الأرواح الخفيّة تجسّدت بعد ذلك وبشكل تصاعدي في تمثّلات إلهية بحيث أمثّل العمل الطّقسي إلى طلب عون الآلهة الشريرة¹ قبل أن يتحوّل إلى شيطنة الكون بمفهومه التاريخي الدينامي ومنه إلى تصحيح الأخطاء الطارئة عليه، لذلك تشكّلت الحياة الدنيويّة وانكشف إبهامها عبر تنظيم علائق البشر بالقوى العليا المقدّسة . ولعله بالوسع تحديد تخوم تلك العلائق وتجليّاتها بقراءة اللّقاءات التاريخيّة بين الإنسان والمقدس وإن كانت تخضع للبلى التّطوّري² ولا شك أنّ دراسة التاريخي، والاجتماعي، والنّفسي، تحدّد تخوم تلك العلائق وتكشف طرز التّعبير عن المقدّس الذي لا يخرج عن تمثّل الشرّ " الطبيعاني " في مقابل الخير " الطبيعاني ". وفي سياق تناول التّشكّل الجنيني لفكرة الشيطان أشارت الدّراسات الأنثروبولوجيّة³ إلى المعتقدات المصريّة في الألفيّة الثالثة ق.م عن طريق القطبيّة الكونيّة التّنافسيّة بين الإله (سيت: المتضمّن لمعنى الأسفل والمجسّد القوى السّالبة) والإله (حوروس: المتضمّن لمعنى الأعلى والمجسّد للقوى الموجبة) واستقرّت تلك القطبيّة بين الخير والشرّ، المادي والمفارق، السّفلي والعلوي مع حلول الإله (رع) محلّ الإله (حوروس) وتصدّره مثل تلك التّجاذبات وغير بعيد عن ذلك ما تكشفه الأسطورة السومريّة⁴ وهي تقصّ علينا رغبة الآلهة (إنانا) مغادرة السّماء إلى الأرض

¹ السواح فراس، الرحمان والشيطان (التّنوّية الكونيّة ولاهوت التاريخ في الدّيانات المشرقيّة)، دمشق، الطبعة الثّانية، 2001 م، ص 53 .

² إلياد مرسيا، المقدّس والعادي، ترجمة عادل العوا، دار التّنوير للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2009 م، ص 24 .

³ السواح فراس، الرحمان والشيطان، ص 57 .

⁴ النّصّ السومري نسبة إلى الحضارة السومريّة لم يستكمل إلّا مؤخّراً سنة 1980 م نظرا إلى وجوده مبعثرا ولعلّ النصوص الأولى تعود إلى الألف الثاني ق م وقد وقع اكتشاف معظمها في نّفر مدينة الإله

بعد استدراجها من قبل شقيقتها (إيريشيجال Ereshkigal) ملكة العالم السفلي واصطدامها وعند العودة برغبة شياطين العالم السفلي في بديل عنها في محاولة شد لصيقة بتلك الطبيعة الشيطانية .

قال الشياطين " إنانا " : [اذهبي إلى مسكنك يا إنانا هذا هو البديل الذي سنعود به]¹ وعليه شرعت الأسطورة السومرية في رسم الأوصاف الشيطانية في رحلة العروج إلى السماء تلك وذكرت فيما ذكرت حرمان الشياطين الأمومة والطفولة من النعومة واللذة وتصوّرت طرق التخلّص من آذاها بالتّحول إلى أجسام حيوانية كثيرا ما التصقت في الترميز الميثولوجي بالحية والثعابين أو الحيوانات الخرافية وهي مقاربات حاضرة في توصيف الشياطين لدى المجوس وفي الصّراع المفترض لديهم بين قوى الخير والشرّ، أو العقل والنفس، أو المشيئة الإلهية القديمة الصانعة للخير في مقابل المشيئة الشيطانية المحدثّة الفاعلة للشرّ، وفي معرض الحديث عن الخلق والحدوث والقدم يمكننا حفظ انعكاسات الشيطان في الحضارة البابلية وتحديدا في قصيدة الخلق "أنوماألش"² المصوّرة وفي حفلة (أكيتو Akito) استعادة الاقتتال فالنصر (لمردوخ) على (تيمات الوحش البحري) ومنه خلق (مردوخ) الكون من نتف جسد تيمات، وخلق الإنسان من دم الشيطان (كينو kingu) ممّا يفسّر الشقّ الشيطاني المكتسب والثابت في الطبيعة البشرية.

نلاحظ إذن ومن خلال الرحلة المكوّنة الميثولوجية السابقة اتّصال الشيطان بالأرض وإصراره على الفعل فيها، ولعلّ بوادر انفصاله تنسب إلى المعتقدات الرّادشيتية التي وضعت علامات وجود المبدأ الكوني للشرّ وعلامات فسادة بحيث

إنيل. — انظر إلى — ديوان الأساطير سومر وآكاد وآشور. نقله إلى العربية وعلّق عليه الشواف قاسم، قدّم له وأشرف عليه، أدونيس، دار الساقى، الطبعة الأولى، 2001م، بيروت، لبنان، الكتاب الرابع، ص 55.

¹ هذا العائد إلى الأرض بدل الآلهة إنانا كان في البداية منشدها شارا Shara وقد رفضت تسليمه، ثم اقترح الشياطين ضابطها لولال Lulal ورفضت تسليمه، ثم انتهى بها الأمر إلى تسليم الرّاعي دوموزي انظر المصدر السابق، ديوان الأساطير، ص 74.

وفي رواية — دوموزي — هو زوج — إنانا — استولى على عرشها لما هبطت الأرض فأرادت الانتقام منه وتسليمه الشياطين — انظر: آرسترنغ كارين، موجز تاريخ الأسطورة، ترجمة اسبر أسامة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الأولى، 2007 م، ص 48.

² إلياد مرسيا، المقدّس والعادي، ترجمة عادل العوا، ص 110 - 111.

تذهب بعض التّحاليل¹ إلى تسجيل النّظرة الزّرادشتيّة² الثّانويّة للعالم الماديّ والنّظرة التّوحيدية للجوهر الكوني، مع ذلك ظلت الشياطين ترسل زبانيّتها إلى الأرض وإلى الأخيار فيها من مثل ما فعله رئيس العفاريت الشريرة مع المعلّم "بوذا"³ حديث شديد الشبه بما عاشه "يسوع" في البرية بعد أن هبط عليه الرّوح القدس⁴، وعليه يبقى العالم الماديّ المسرح الأظهر لذلك التّجاذب الثّنائي السالب الموجب، إله النور وإله الظلمة في مرحلة أسبق.

توقفنا إذن عند بعض تعابير الخير والشرّ لتسجيل انسياقهما في العوالم الأسطورية التي تجنح وفي معرض أدوارها إلى التوجّه للعلا مسكن الآلهة وتستهلك في ذلك جملة من الرّموز التّجسّدية والتّعبيرية لتوكيد الذات الماهويّة الظّاهرة وربّما توصيف العلاقات المتبادلة بين الزّمان والأبد، فالتّصوّرات الأسطورية " تأكيدات واعية متكشفة في التّجربة الدّينية، والمعتقدات هي أولى المبادئ العقليّة المستوعبة للأسطوري"⁵ فقد وضعت الأسطورة مجموعة من التّسميات أو الرّموز اللّغويّة على

¹ السواح فراس، الرحمان والشیطان، ص 29.

² الديانة الزّرادشتيّة نسبة إلى صاحبها زرادشت، وتعدّ الأدبيّات المتصلة بهذا المعتقد مصدرا للكثير من المقاربات الأنثروبولوجيّة ومنها الأناشيد المدعوّة بالغاثا ومنها الأفستا الأحاديث الشّفويّة المنقولة والمختلف في تواريخها في القراءات الفيلولوجيّة (بين 900 ق م و 1000 ق م والقرون 5 و 6 و 7 ق م — المصدر القراءات المتصلة بالتّاريخ للزّرادشتيّة —)

³ بوذا يطلق على " بوذا الأكبر " أو " بوذا جوتما والأرجح انحداره من أصل نبيل من بلاد الهند وولادته حوالي 568 ق م ويعتقد أتباع بوذا بحلول روحه وبأته المنقذ على الأرض. انظر: عبد القادر حامد، بوذا الأكبر، دار نهضة مصر للطبع والنّشر، القاهرة، 1986 م، ص 44.

وفي الرواية المتصلة ببوذا ورئيس العفاريت حكاية عن إرسال هذا الأخير " مارا " ليضرب بوذا بأسلحته بينما كان مستغرقا في تأملاته تحت شجرة العرفان " البو " وذكر لتحويل الأسلحة إلى براعم وزهور علّقت حول رأسه. — انظر بعض التّفاصيل قي : السواح فراس — الرحمان والشیطان — ص 80.

⁴ في إنجيل متى حديث عن غواية الشيطان يسوع بعد أن هبط عليه الرّوح القدس مفادها : [وأخذه إبليس إلى جبل عال جدّا، فأراه جميع ممالك الدّنيا ومجدها وقال له : { أعطيك هذا كلّّه، إن سجدت لي وعبدتني } فأجاب يسوع : { ابتعد عني يا شيطان، لأنّ الكتاب يقول : للرّبّ إلهك تسجد وإياه وحده تعبد } [متى 4 : 8-10]

⁵ لوسيف ألكسي — فلسفة الأسطورة — ترجمة حلوم منذر — دار الحوار للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، 2005 م، ص 175 و 176.

ثنائية الخير والشرّ مثلاً في موضوعنا وشكلت بها ذلك الطابع التمثيلي الكاشف عن مدلولاتها وعن طرقها الأخطبوطية المجازية الشديدة التعقيد أحياناً .

ولأنّه لا يمكن رؤية الفكرة مجردة عن الصورة ولا الصورة خالية من الفكرة نظرت القراءات الأنثروبولوجية في تلك المحمولات الرمزية اللغوية لتفتح طرائق يمكن في ضوءها "ترتيب أو إعادة ترتيب الخلايا التفسيرية الأسطورية"¹ والعلامة اللغوية تملك ذلك الإنسجام بين الدال والمدلول لذاك ثبت "جيلبير دوران Gilbert Durand"² أسبقية الترميز الكرونولوجي والأنطولوجي على أية دلالة سمعية، وأكد أنّ دراسة النماذج الأصلية الأساسية للمتخيّل الإنساني تتموقع ضمن المنظور الرمزي مع اعتبار هشاشة الرموز واستيعابها التحوّل والتعّدّد والتأويل على أساس أنّ الرمزية تحتل الولادة كما تحتل التدمير . ولعلّ تمثّلات الخير والشرّ في الفكر الديني تستوعب المقاربات المنهجية المختلفة على غرار المنهج الطبيعي في دراسة الظاهرة، أو المنهج المجازي، أو الرمزي، أو منهج التحليل النفسي .

تطلّعنا المسألة اللغوية لتسمية "الشيطان Diabolos/ Diable" على الجذور اليونانية للفظ المترجمة عن العهد الجديد عن أصلها "Satan"³ وتعني المشتكي زوراً، كذلك يذكر اسم الشيطان في العبرية من "شطن" ليعني المقاوم والمعاند المكلف بأداء المهام الشريرة كما تناول ذلك جيّداً (سفر المزامير) وفي العربية دلالات لمادّة شطن، والشاطن البعيد عن الحقّ والشيطان الخبيث يطلق على كلّ عات متمرد من الجنّ والإنس والدواب⁴ ويتمثّل في أكثر الصور قبّحا، لذلك لا يفصل "العقاد في كتابه إبليس" الكلمة عن أصولها العربية المقترضة على غرار نظائرها في اللغات

¹ ليفي ستراوس كلود - الأسطورة والمعنى - ترجمة حديدي صبحي ، دار الحوار السورية ، اللاذقية الطبعة 1995م ، ص 53 .

² Durand Gilbert - Les structures anthropologiques de l'imaginaire- Dunod, 1ème édition , Paris , 1992 , p 26 - 27 .

³ Poupard Paul , Dictionnaire Des Religions , Comité de Rédaction, Delahoutre Michel, Ries Julien, Cothenet Edouard, Vidal Jaques , Marchasson Yves - Presses Universitaires De France- Paris 1984 , p 477 .

⁴ ابن منظور، لسان العرب، مراجعة وتدقيق د البقاعي يوسف، شمس الدين إبراهيم، علي نضال، مؤسسة الأعلى للطبعات، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، 2005 م ، الجزء الأول ، مادة (ش.ط.ن)، ص2037.

السَّابِقَةُ الذَّكْرَ لَكُونِهَا تَتَّسَعُ لِلْجَذَرِ الْمَغْرَعِ لِكَلِمَةِ الشَّيْطَانِ¹ مَسْأَلَةٌ مُسْتَبَعْدَةٌ لَدَى "جَوَادِ عَلِيٍّ" وَمَعْلَلَةٌ بِخَلْوِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ عِبَارَةِ "الشَّيْطَانِ" فِي مَا عَدَى مَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ "أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ" وَمَا نَسَبَ "عَدِيَّ بْنَ يَزِيدَ الْعَبَادِيَّ" وَقَدْ كَانَتْ لِهَمَا صِلَةٌ بِالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ سَهَّلَتْ تَصَوُّرَهُمَا لِلشَّيْطَانِ².

كَذَلِكَ تَدَاوَلَتْ النَّصُوصُ الْمُقَدَّسَةُ التَّسْمِيَةُ بِمُرَادِفَاتٍ وَنَعَوَاتٍ لَا تَبْتَعِدُ كَثِيرًا عَنْ أَصُولِهَا اللَّغَوِيَّةِ فَسَحَبَ الْعِبْرَانِيُّونَ أَسْمَاءَ مِثْلَ "بَلْعِيَانِ" الشَّرِيرِ وَ"أَبُولِيُونَ" الْمَهْلِكِ وَ"أَزَاذِيلَ"³ فَفِي سَفَرِ صُمُوئِيلَ إِشَارَةٌ إِلَى الرُّوحِ الشَّرِيرِ : { وَأَخَذَ شَاوُلُ يَضْمُرُ الشَّرَّ لِدَاوُدَ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَكَانَ فِي الْغَدِ أَنْ اسْتَوَلَى عَلَى شَاوُلَ رُوحٌ شَرِيرٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }⁴ وَتَوَسَّعَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ فِي تَعْدَادِ النَّعَوَاتِ وَالْأَوْصَافِ "لِبَعْلَزَبُولَ" رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ : { وَسَمِعَ الْفَرِيسِيُّونَ كَلَامَهُمْ فَقَالُوا هُوَ يَطْرُدُ الشَّيَاطِينَ بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ }⁵ وَرَئِيسُ الْقَوَاتِ الشَّرِيرَةِ : { وَفِيمَا مَضَى كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بِزَلَاتِكُمْ وَخَطَايَاكُمْ الَّتِي كُنْتُمْ تَسِيرُونَ فِيهَا سِيرَةَ هَذَا الْعَالَمِ، خَاضِعِينَ لِرَئِيسِ الْقَوَاتِ الشَّرِيرَةِ فِي الْفَضَاءِ، أَيِ الرُّوحِ الَّذِي يَتَحَكَّمُ الْآنَ بِالْمُتَمَرِّدِينَ عَلَى اللَّهِ }⁶ وَالتَّنِينِ الْعَظِيمِ : { وَسَقَطَ التَّنِينُ الْعَظِيمُ إِلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ تِلْكَ الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ وَالْمُسَمَّى إِبْلِيسَ أَوْ الشَّيْطَانَ خَادِعَ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَسَقَطَ مَعَهُ مَلَائِكَتُهُ }⁷ وَالْأَسَدُ الزَّائِرُ : { تَتَقَيَّظُوا وَاسْهَرُوا لِأَنَّ عَدُوَّكُمْ إِبْلِيسَ يَجُولُ كَالْأَسَدِ الزَّائِرِ بَاحِثًا عَنْ فَرِيسَةٍ لَهُ }⁸.

وَتَخْبِرُ الْقِرَاءَةَ فِي أَصْلِ التَّسْمِيَةِ الْقِرَائِيَّةِ عَنْ تَدَاوُلِ أَلْفَاظِ "إِبْلِيسَ" وَ"الشَّيْطَانِ" مِنْ حَيْثُ أَهْمِيَّةُ التَّنَاوُلِ وَاسْتِقْرَارُ الْمَعْنَى فَالتَّسْمِيَةُ فِي ذَاتِهَا عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى عِدَاءِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى إِبْعَادِهَا مِنْ لَطْفِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ كَمَا تَدُلُّ مَادَّةُ شَطْنِ عَنْ عَمَقِ قَعْرِ الْبُئْرِ وَتَدُلُّ الْأَشْطَانُ عَلَى الْحَبَالِ الْقَوِيَّةِ الشَّدِيدَةِ الْفَتْلِ الْمَعْدَّةِ لِلْآبَارِ

¹ محمود خليل أحمد، موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة سورية، دمشق، 2006م، ص 198 و199.

² المصدر نفسه، ص 199.

³ موقع مسيحيات <http://maseeheyat.com>

⁴ صموئيل الأول [18 : 9 - 10]

⁵ متى [12 : 24]

⁶ أفسس [2 : 21]

⁷ رؤيا يوحنا [12 : 9]

⁸ بطرس الأولى [5 : 8]

البعيدة¹ على أساس أنّ الصّفة والفكرة سبقتا التسمية وهو أمر لا يمكن اعتباره من المتفق عليه فكثيرا ما تدرج مثل هذه المقاربات التعليلية في غياب الأدلة اليقينية، كذلك اتّصلت العداوة الشيطانية بهبوط آدم الأرض قال تعالى : { فَذَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }² وتأكدت في قوله : { يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ }³.

ولئن كانت التسمية متعدّدة في جذورها شبه متطابقة في دلالتها فإن تلك الطبيعة الشيطانية خصائص شديدة الاتّصال بها وباستقلاليتها عن الألوهية المتشخصية بين الخير والشرّ أو الأصل الموحد للخير والشرّ في النصوص الكتابية تحديدا. فلا شك أنّ لإبليس تمثّلات حقيقية في النصوص التوراتية ولكن طبيعته متخفية في فردوس عدن متأخرة الظهور بحيث بدت الذهنية القديمة التوراتية ضبابية في تصوّرها وتجسيدها لكائن مستقل بذاته فهو تارة المخالف لنواميس الطبيعة المسؤول عن العلل والمصائب، وتارة الملك الساقط، وأخرى الرمز الأسطوري، وطورا المتمرد الأثيم، وأخرى الملاك المهلك المرسل من "يهوه" نفسه على مصر وأورشليم جاء في سفر الخروج : { ويمرّ الربّ ليفتك بالمصريين فإذا رأى الدّم على العتبة العليا وجانبي الباب عبر عنه ومنع ملاك الموت من أن يدخل بيوتكم ليفتك بكم }⁴ مما يفسّر غياب التّمظهر الحقيقي المنفصل عن الثنائيات الملتبسة في التّورة ثنائيات الخير والشرّ والنور والظلمة ورد في سفر إشعيا : { ليعلم البشر من مشرق الشّمس إلى مغربها أن لا إله غيري . أنا الربّ ولا آخر. أنا مبدع النّور وخالق الظلمة. وصانع الهناء وخالق الشقاء. أنا الربّ صانع هذا كله }⁵ كلّ ذلك لم يمنع ظهور بوادر فصل حقيقية بين العالمين الملائكي والشيطاني بعد السبي خصوصا حيث تجسّدت مظاهر تغيب الشيطان الكوني لصالح الشق الآثم الشر

¹ ابن منظور - لسان العرب - الجزء الأول ، مادة (ش.طن)، ص 2037 .

² الأعراف [22 : 7]

³ يوسف [5 : 12]

⁴ الخروج [23 : 12]

⁵ إشعيا [45 : 6-7]

المحض من باب تنزيه الإله الأعلى " يهو " ليبدو أكثر استقلالية : { الربّ إلهكم تتبعون وبه تثقون، ووصاياه تحفظون، ولصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تتمسكون }¹.

تأكد أمر انفصال الجوهر النقيّ عن الجوهر القبيح في النصّ الإنجيلي وصار للشيطان تجسّد حقيقيّ مثل يسوع والملائكة، مميّز بطبيعة روحية وإدراك حسيّ شهواني وإرادة مستقلة وإن كان في الأصل ملاكا ساقطاً بسبب كبريائه وكيده الذي استدعى جهاده وفي أفسس وصيّة الربّ: { تسلّحوا بسلاح الله الكامل لتقدروا أن تقاوموا مكايد إبليس فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم، عالم الظلام والأرواح الشريرة في الأجواء السماوية }².

ولعلّه من الجدير في هذا السياق الإشارة إلى الميثولوجيا الغنوصيّة³ المؤسّسة في الأصل على نقد جذري لليهوديّة والنصرانيّة لا سيّما بالنظر إلى تأويلها العالم على أساس ماديّ شيطانيّ واعتبارها الحكمة آخر أفلاك القوى الروحانية في ترتيب الصّدور عن مركز النور الإلهي، وهو أمر ساهم في شيطنة العوالم الماديّة وتفعيل فكرة الإنسان العرفاني مخلصّ الروح من القوى الظلاميّة فروح الإنسان قبس من الأعلى النورانيّ الإلهي المحبوس في سجن المادّة، وهو الجوهر الفاضل الكريم النقيّ المقابل الجوهر الأظلم القبيح⁴.

والثّابت أنّ الشيطان وفي النصّ القرآني تفرّد بطبيعة خاصّة فهو جنس من المخلوقات كما أنّ الجنّ جنس من المخلوقات قال تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }⁵ وأكد على أنّ الطّبيعة العدوانيّة التي يمكن أن تلحق الجنّ

¹ الثّنية [6 : 13]

² أفسس [6 : 12]

³ - الغنوصيّة نسبة إلى تيّار روحي جديد ناقد للأيدولوجيا التّوراتيّة من حيث الجوهر وقد قامت ضدّها حملة أتلّفت معظم مخطوطاتها وعثر بعد ذلك على بعضها بمصر سنة 1945م وقدّر زمنها بحوالي 400م لهذه المخطوطات ترجمة قبطيّة عن أصول يونانيّة. انظر - السواح فراس - الرحمان والشيطان - ص 203 .

⁴ الشّهريستاني - الملل والنحل - تحقيق محمد سيّد كيلاني - دار صعب ، بيروت ، 1986م ، الجزء 1 ص 245 .

⁵ الدّاريات [51 : 56]

والإنس كما في قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }¹ هذا إلى جانب ما يمكن ملاحظته من التوصيف الطبيعي الذي يلحق إبليس بعوالم الجان قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ }² والواقع أن ذلك التوصيف لم يكن منقطعاً عن وسطه الجاهلي السابق في الزمن فقد حفظت أساطير العرب تصورات للطبيعة الشيطانية واعتقدوا أن الشيطان يركب قرني الثور³ ولا يخشى أخبث أنواع الجن أمر جلب له التقدير والعبادة قال تعالى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا }⁴

على أساس أن العوذ⁵ وفي حقيقة معناه يفيد التجاء العرب قبل الإسلام إلى الاستعاذة من جنّ الغدران والوديان والقفار، وعلى أساس التباس تلك الطبائع ببعضها فقد أطلق الخيال الماورائي الشاسع من بين كثران الرمال على أجناس قريبة يمكن أن تصنف فيها الغول والعفاريت وتقدم لها القرابين كشكل من أشكال الرقي⁶ عند عتبة البيوت مثلاً .

نسبت التصوص التوراتية أدواراً متعددة إلى الشيطان قبل أن يستقل بذاته وأسندت مهاماً غريبة إلى الربّ المخلص المحصن المنقذ كما في المزمور : { فَارْتَجِعْ الْأَرْضُ وَارْتَعْشَتْ وَتَرْعِزْ عَتِ أَسْوَاسُ الْجِبَالِ مَادَتْ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ . تَصَاعَدُ دُخَانٌ مِنْ أَنْفِهِ ، وَنَارُ آكَلَةٍ مِنْ فَمِهِ ، وَجَمْرٌ مُتَّقِدٌ وَلَهْيِبٌ } وفي سفر الخروج وصف للسياسة العدوانية للإله " يهوه " من دون أن يكون ثمة تعليل منطقي مبرر، فقد

¹ الأنعام [6 : 112]

² الكهف [18 : 50]

³ د / حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1998م، ص 74 .

⁴ الجن [72 : 6]

⁵ ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد 12، الجزء 29، ص 225 .

⁶ البرغوثي جبارة، أتباع الشيطان أسطورة الديانات الماسونية، دار كنعان، الطبعة الثانية،

2005م، ص 23 .

⁷ المزمور [18 : 9-8]

كان " يهوه " وراء قساوة القلوب يتمظهر في شكل الدافع إلى الخطيئة ومنها إلى العقوبة {وأنت ارفع عصاك ومدّ يدك على البحر فينشقّ ليدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على الأرض اليابسة وأنا أفسّي قلوب المصريين فيدخلون وراءهم فأجهز على فرعون وجميع جنوده ومركباته وفرسانه . فليعلم المصريون متى أجهزت عليهم أني أنا الربّ }¹ وتسمى الأهوال والمصائب التي حلّت بالمصريين بالعجائب والأحكام العظيمة² وتكرّس بشكل ما النّزعة التّسلطيّة ليهوه {وقال الربّ لموسى قل ليهرون أن يمدّ يده بعصاه على الأنهار والسّواقي والبرك ويصعد الضّفادع على أرض مصر فمدّ هرون يده على مياه مصر، فصعدت الضّفادع وغطّت الأرض}³ كذلك في وصف ما لحق مصر من ظلام دامس {وقال الربّ لموسى مدّ يدك نحو السّماء فيكون على أرض مصر ظلام كثيف تلمسه اليد فمدّ موسى يده نحو السّماء فخيم ظلام حالك على جميع أرض مصر ثلاثة أيام فما كان الواحد يبصر الآخر ولا كان أحد يقوم من مكانه ثلاثة أيام أمّا بنو إسرائيل فكان لهم نور في مساكنهم}⁴ وفي قراءة مثل هذه الأمثلة تميل التّحاليل إلى تأكيد تبعيّة يهوه الربّ الظّاهرة وقدرة الشيطان على خداعه ممّا يفيد قيام علاقة جدليّة في ثنائيّة الخير والشرّ على الرّغم من إمكانية تسجيل بعض الإشارات الرّمزيّة لتقمّص الشيطان هيئة المشتكي في النصّ التّوراتي الحامل لمجموعة من القوانين والإرشادات والعظات كما أفصح عن ذلك سفر أيوب ففي سؤال الربّ عن عبده المطيع أيوب يحاول الشيطان الكيد والتّشكيك في اخلاصه وطاعته ويلعب دور المجادل المقارع بالحجّة قبل أن يتمرّد على " يهوه" ويحاول الاستقلال بذاته، جاء في سفر أيوب {فقال له الربّ هل استدعى انتباهك عبدي أيّوب فهو لا مثيل له في الأرض لأنّه رجل نزيه مستقيم يخاف الله ويحيد عن الشرّ فأجاب الشيطان أيّخاف أيّوب الربّ مجاناً أما سيّجت حوله وحول بنيّه وحول كلّ شيء له من كلّ جهة أما باركت أعماله فانتشرت مواشيه في الأرض ولكن مد يدك الآن ومسّر

¹ الخروج [18-17-16 : 14]

² د/ خليل على، اليهوديّة بين النّظريّة والتّطبيق، مقتطفات التلمود والتّوراة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، منشورات 1997م، ص 48 .

³ الخروج [2-1 : 8]

⁴ الخروج [22 : 10]

كلّ شيء له فترى كيف يجذّف عليك في وجهك¹ وقد نصّ الإله ذاته عن تحريض الشيطان له قال {هل استرعى انتباهك عبدي أيوب فهو لا مثيل له في الأرض لأنّه رجل نزيه مستقيم يخاف الله ويحيد عن الشرّ وإلى الآن هو متمسك بنزاهته مع أنّك حرّضتني عليه من دون سبب² وخطب في أيوب يلومه ويقارعه على قلة صبره {فأجاب الربّ أيوب من العاصفة شدّ حيلك وكن رجلاً أريد أن أسألك فأخبرني حقاً تريد أن تنقض حكمي وأن تدينني لتبرّر نفسك، أمثل ذراع الله ذراعك وبمثل صوت الله ترعد³.

هذا ويمكن للملاحظ أن يثبّت صفة الغواية المتّصلة بالشيطان في النصوص التوراتيّة وفي بعض النصوص العبريّة المترجمة حديثاً نسبياً إلى اليونانيّة واللاتينيّة ولغات أخرى اثر العثور عليها وفي بعضها تأكيد ملاحقة الشيطان ومنذ البدء آدم وحواء ورغبته الصريحة في التهجّم عليهما إثر نزولهما من الفردوس بالمر والخدعة وفي أحد النصوص ما يفصح عن ذلك مع اعتبار الفواصل الزمنيّة في تحريرها ومصادقيتها جاء على لسان آدم وحواء " الويل لك أيّها الشيطان لماذا تهاجمنا دون سبب ما الذي فعناه حتّى تلاحقنا دوماً بالمر والخدعة، وتنهّد الشيطان وقال إنّ كلّ عدائي وحسدي بسببك أنت يا آدم طردت وحرمت من مجدي في السّماء وبين الملائكة وبسببك أنت رميت من الأعالي إلى الأسافل⁴

¹ أيوب [1 : 8-10 6]

² أيوب [2 : 2]

³ أيوب [40 : 6-7-8-9]

⁴ هذا النص هو ترجمة عن نصّ عبري عثر عليه بعد فقدانه وقدر تاريخه إلى ما قبل القرن الأوّل قبل الميلاد والقرن الثّاني قبل الميلاد وقله إلى العبريّة فراس السواح عن

J.H charles worth, edt, The old Testament . Pseudepigrapha . vol 2

انظر السواح فراس، الرحمان والشيطان- ص 192 و193 .

كذلك ثبت الكاتب " فراس السواح " رسم الشيطان الغيور المغربي حيث تقرأ في الأسباط الإثنتي عشر وفي وصيّة شمعون محاولته تلك : " وفي أيام صباي كنت غيوراً من أخي يوسف لأنّ أبي أحبه أكثر منّا جميعاً . فعزمت في سرّي على إهلاكه لأنّ أمير الخطيئة (بلعار) أعمى بصيرتي " عن موسوعة الأسفار

غير القانونيّة . The Old Pseudepigrapha: T,P,782zz

في نصوص قمران أو مخطوطات البحر الميت التي عثر عليها تباعاً منذ سنة 1947م حديث عن حرب أبناء الثور ضدّ أبناء الظلمة وراع روح الشرّ بلعيار وروح الخير ميخائيل أو رئيس الملائكة ، حرب تدوم إلى حين يوم الفصل العظيم بين الخير والشرّ .

المصدر السابق ، ص 183 وص 185 وص 186 .

كذلك وردت القصة شديدة الشبه بالرواية القرآنية مع اعتبار التحفظات التي ذكرت.

والواقع أنَّ الخطيئة الأصلية شديدة الاتصال بالغواية الشيطانية في مجمل النصوص الكتابية حيث جاءت الأناجيل من صلب التوراة لتدفع الشيطان بذات الأدمغة في رومة {والخطيئة دخلت في العالم بإنسان واحد وبالخطيئة دخل الموت وسرى الموت إلى جميع البشر لأنهم كلهم خطئوا فالخطيئة كانت في العالم قبل شريعة موسى ولكن حيث لا شريعة لا حساب للخطيئة غير أنَّ الموت ساد البشر من أيام آدم إلى أيام موسى، حتَّى الذين ما خطئوا مثل خطيئة آدم . وكان آدم صورة لمن سيجيء بعده } وعليه انبنت بعض روايات قصص الخلق ومنها ما نقل عن أباء الكنيسة² يفيد تسلُّ إبليس الجنة ومحاولته الإلتفاف على شجرة المعرفة لأجل إلحاق اللعنة الكبرى بالإنسان وعبره بعوالم الطبيعة ومنها التأسيس إلى ذلك الصراع المأسوي بين النور والظلمة الشر والخير المشخص في تلك الطبيعة الشيطانية .

من أجل ذلك أسست المسيحية في العهد الجديد مفهوم الخلاص الذي ارتبط وفي شكل من أشكاله باستصفاء النور المحتبس في المادَّة الظلامية الشيطانية وتصفية نسيجه بكثافة الروح المخلص من الآثام، فالشيطان في الأناجيل صاحب مملكة الشر الذي أخرج يسوع إلى البرية وأغواه {وأصعده إبليس إلى جبل مرتفع وأراه في لحظة من الزمن جميع ممالك العالم، وقال له أعطيك هذا السلطان كله ومجد هذه الممالك لأتني أملكه وأنا أعطيه لمن أشاء فإن سجدت لي يكون كله لك فأجابه يسوع يقول الكتاب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد³ } والمسيح هو البطل السماوي المصارع لقوى الشر المنتصر على غواية إبليس وقد أكد قانون الإيمان المسكوني⁴ على أنَّ أبوة الله وبنوة المسيح واتحاده بأبيه في الجوهر وتجسده في تلك

¹ رومة [5 : 12-13-14]

² السواح فراس - الرحمان والشيطان - ص 249 .

³ لوقا [4 : 5-6]

⁴ نصَّ قانون الإيمان المسكوني لسنة 381 م على : " أنَّ ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كلِّ الدهور نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، واحد مع الأب في الجوهر الذي به خلق الكل ، ولأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا . نزل من السماء وبقوة الروح القدس جسّد من مريم العذراء و الصلب من أجلنا على عهد بيلاطس البنطي ، وتألّم ومات وقبر " ولو أنَّ الاتجاهات المسيحية لا تتفق

الطبيعة البشّرة الإلهية ووردت كذلك الصبغة الإنقاذية واضحة غير منفصلة عن إرادة التّضحية والفداء متجسّدة في تحرير الأجساد من الشياطين {وكان يطرد شيطاناً أخرس فلما خرج الشيطان تكلم الرجل، فتعجب الجموع . لكن بعضهم قال هو يطرد الشياطين وبيبلزبول رئيس الشياطين}¹ وطرد الأرواح النّجسة {وكان في المجمع رجل فيه روح نجس فأخذ يصيح ومانا ولك يا يسوع الناصري، أجنّت لتهلكنا، أنا أعرف من أنت أنت قدوس الله . فانتهره يسوع قال إخرس وأخرج من الرجل فصرعه الروح النّجس، وصرخ صرخة قويّة وخرج منه }² . ولما كان ذلك حال المسيح يأمر الأرواح الشريرة فتطيعه، تراجعت رئاسة الشيطان وطرح النور في مقابل مباغطة الظلام {فالتور يشرق في الظلمة والظلمة لا تقوى عليه}³ وصار نعت المؤمن لصيقاً بهزيمة إبليس فيما عبّر عليه في "أفسس" بالهادي الروحي {وختاماً أقول تقوّوا في الربّ وفي قدرته العظيمة تسلحوا بسلاح الله الكامل لتقدروا أن تقاوموا مكائد إبليس فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسّلطان والسيادة على هذا العالم عالم الظلام والأرواح الشريرة في الأجواء السّماوية}⁴

استمرت معاداة الشيطان لآدم وذريّته في النصّ لقرآني وكانت العلامة الأظهر لذلك ما ورد في سورة البقرة {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}⁵ مع ما يمكن أن يرافق هذه الآيات من تفاسير موضحة لمصدر الغلط والخطيئة أو العصيان المدلل عليهم في لفظة " الزّلل " . وعليه توسّع النصّ

جميعها حول تلك الطبيعة الثنائية للمسيح فضلاً على الانتقادات التي طالت مسألة الجوهر الثالث الذي لم يبق اللاهوت لاهوتا ولا النّاسوت ناسوتا .

¹ لوقا [14 : 11]

² مرقس [1 : 23 - 24 - 25 - 26]

³ يوحنا [1 : 5]

⁴ أفسس [6 : 10 - 11 - 12]

⁵ البقرة [2 : 34 - 36]

⁶ انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الأوّل ، ص 433 .

القرآني في حصر النتائج الطبيعية للوسوسة والتسويف والأمر بالمعصية أو التذكيرة بشرور النفس وفسادها ومجانبتها الخير¹ إلا أن اختلاف الشيطان في القرآن عن مثيله في النصوص التوراتية والإنجيلية بائن واضح يتلخص في كونه انفصل تماما عن الطبيعة الإلهية لم يعد ندا للرحمان وقد سحبت منه سلطة التدخل في مظاهر الخلق وبدا مستقلا عن عوالم الألوهية والنبوة قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}² وقال تعالى: {إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}³

ولعل المعنى الأعظم لذلك هو انفصال ثنائية الخير والشر عن المبدأ الكوني الأصلي بحيث صيرهما النص القرآني مواضيع احتمالية تتصل بمسؤولية الإنسان وخياراته ولعل للسؤال علائق متصلة بقضيتي الجبر والاختيار باعتبار الصورة القرآنية المفعلة لله الخير المحض . فأفعال العباد وفي محيط الجدل الكلامي تميل إلى اعتبار مسؤولية الإنسان وتفويض الله له أمر اختياره من حيث الأحداث أو الكسب أو الخلق باعتبار الأدلة السمعية والنقلية كما جاء تفصيله في كتاب القاضي عبد الجبار " شرح الأصول الخمسة " مثلا . لذلك يمكن أن نخلص إلى تقلص مساحة الشيطان المحفز على الشر لحساب الإنسان المخير وضمن الصيرورة التاريخية المتجهة إلى تفعيل آليات الحرية الإنسانية وعقلنة علاقة التعاطي مع الخير والشر.

¹ الأمثلة في النص القرآني متعددة منها :

قوله تعالى : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى } طه [20]:
[120] وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } النور [24 : 21]

وقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء [4] : 60

وقال تعالى : { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَغَنِ الصَّلَاةِ فَعَلِ اللَّهُ مَا تَشَاءُونَ } المائدة [5 : 91]

² النحل [16 : 17]

³ الإسراء [17 : 65]

ما يمكن الخلوص إليه بعد استعراض جملة من النصوص الممثلة لأوصاف الشيطان وأدواره، نوجزه في النقاط التالية :

● اتصال الشيطان بالذات الإلهية في جزء مهم من النصوص التوراتية في أدوار الغواية بحيث يتجسد أحيانا في لبوس "يهوه" ويبدو في أخرى شريكا أو تابعا له يقتسم معه قربان الخطيئة .

● انتقال ضبابية الطبيعة الشيطانية في النصوص التوراتية إلى العالم الملائكي المنقسم بدوره إلى شرير وطيب حيث يطالعك سفر المزمور بالسخط والضيق المتصلين بجيش الملائكة الأشرار .

● ضرورة اعتبار ميراث جماعة يعقوب في مثل هذه المقاربات على أساس ميزة الأفضلية إزاء الأغيار وعليه نسبة الطبيعة العدوانية ليهوه إله القوم ورب الجنود فالنار ثاره والإنقاذ انتقامه كما نصّ على ذلك جيّدا سفر الخروج.

● اتّصلت غواية الشيطان كذلك بالنبي يسوع على الرغم من طبيعته المزوجة ووظيفته المخلصة.

● كان على المسيحية أن تقدّم ذلك اللاهوت المتناسق المتكامل عن الشيطان في سياق الخلق والتكوين ومراحل الزمن ونهايته ممّا رجّح لديها عملية الاستقطاب الثنائي الخير الشرير وخلق الأبطال الدائمين في المعركة الأزلية من بداية الوجود إلى نهايته.

● يتفق القرآن مع الإنجيل في خطيئة الشيطان وفي سقوطه إلا أنّ الاختلاف بيّن في تفاصيل تلك الخطيئة في التوراة فقد كان الشيطان مكتمل الأوصاف يقبع على جبل الله المقدّس بين حجارة النار في سفر " حزقيال 28 " وقرّر الربّ طرحه الأرض وتصييره رمادا أمام الأعين لأنّه نجس مقاديسه بكثرة آثامه

¹ ورد في سفر حزقيال : {سأطرحك إلى الأرض وأجعل أمامك الملوك لينظروا إليك وقد نجست مقاديسك بكثرة آثامك بظلم تجارتك فأخرج نارا من وسطك فتأكلك وأصيرك رمادا على الأرض أمام عيني كلّ من يراك فيتحير منك الذين يعرفونك بين الشعوب وتكون أهولا ولا توجد بعد إلى الأبد } حزقيال [28 : 19/11]

= وفي أشعيا { كي سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم وأنت قلت في قلبك اصعد إلى السماء ارفع كرسيّ فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال أصعد فوق مرتفعات السحاب أصير مثل العليّ } أشعيا [14 : 14/12]

• لا يختلف النصّ القرآني عن النصّ الإنجيلي في أصل ذلك السقوط أي في كبرياء الشيطان وغروره .

• استردّ الله طبيعته التورانيّة في النصّ القرآني قال تعال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ¹ ولعلّه إسناده مجازي يتجاوز عملية الإبلاغ إلى التأثير فملتقى النصّ يدرك موقع النور في الوجود ويتمثّل وظيفته .

هذا ومن الجدير وبعد مساءلة النصوص عن طبيعة إبليس وأدواره النفاذ إلى مآله ومصيره فقد دَبجت الكتب المقدّسة بمضامين الحياة والبعث وانتصار العدل والمحبة والسعادة والرّافة الأبدية من خالق الكون ومضائر الإنسان فيه ، ولئن بدت الرواية التوراتيّة محتشمة في تحديدها ملامح مستقلة عن الشيطان فإنّ ما حفّ حولها من تأويل يصبّ أغلبه في خانة نصره شعب الله المختار . ففي رواية يذكر "بختنصر" ² الملك الآشوري الذي قام بسبي اليهود وينعت بالشيطان المسوخ إلى صور البهائم إلّا أنّ الرواية وفي خواتمها تطهره عبر عذاباته تلك .

وبدا الأمر أكثر وضوحاً وحزماً في النصوص الإنجيليّة حيث أكّدت على المصير المحتوم للشيطان وما يرادفه من أسماء كالتنين والحية القديمة في حرب نهاية الزّمن المزعومة بين الملائكة والشياطين والمقيّدة لهذا الأخير ألف سنة بتمامها جاء في رؤيا يوحنا { ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَائِكَةً نَازِلِينَ مِنَ السَّمَاءِ يَحْمِلُونَ فِيهِمْ مَقْتَحَ الْهَافِيَةِ وَسُلْسَلَةَ عَظِيمَةً فَامْسَكَ التَّنِينَ تِلْكَ الْحَيَّةَ الْقَدِيمَةَ أَيَّ إبْلِيسَ أَوِ الشَّيْطَانِ وَقَيَّدَهُ لِأَلْفِ سَنَةٍ وَرَمَاهُ فِي الْهَافِيَةِ وَأَقْفَلَهَا عَلَيْهِ وَخَتَمَهَا فَلَا يَضِلُّ الْأُمَمُ بَعْدَ حَتَّى تَمَّ الْأَلْفُ سَنَةً وَلَا يَدْ مِنْ إِطْلَاقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْوَقْتِ قَلِيلٌ } ³ والإنسان في المسيحيّة قادر على إزالة أثر الخطيئة الأصليّة من خلال التّعرف على أصله التوراني .

وبعد الانتصار على الشيطان تدميرا للكتلة الماديّة الفانية لصالح العوالم الروحانيّة الباقيّة . ولأنّ الإنسان سقط من برائن الشيطان بخطيئته فإنّ الدّورة الزّمنيّة المخلّصة من شأنها تكميل معرفته وتطهير روحه وبعد الصّلب في ذاته انتصاراً على سلطة إبليس فأداة الفداء بما صاحبها من آلام تشدّد على أنّ الخطيئة

¹ النور [35 : 24]

² البرغوثي جبارة ، أتباع الشيطان ، ص 30 .

³ رؤيا يوحنا [20 : 2-3]

استسلام لموت المسيح الكفاري ولا تقف بمعزل عن فارق الإنسان ولا تقابله . ولأنَّ الإنسان سقط من برائن الشيطان بخطيئته فإنَّ الدَّورة الزَّمنية المخلَّصة من شأنها تكميل معرفته وتطهير رُوحه لذلك يعدُّ الصَّلب في ذاته انتصاراً على سلطة إبليس وقد عدَّ المسيح الشَّفيع مَكْفَر الخطايا {فهو كَفَّارَةٌ لخطايانا لا لخطايانا وحدها بل لخطايا العالم كلِّه} ¹ وفي المقابل قلَّ النصَّ القرآني من أهميَّة الشَّيطان وإن بدا متلبساً بالإنسان في أدوار الغواية المتعدِّدة، وقد دعاه إلى الاستعاذة منه قال تعالى {فإن قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم إنَّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون} ² وأكَّد القرآن النَّهاية المحتومة المقرَّرة سلفاً في صلب الخلق الأوَّل حيث ترجَّح كَفَّة الخير في الهزيع الأخير من التَّاريخ قال تعالى : {استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشَّيطان ألا إنَّ حزب الشَّيطان هم الخاسرون} ³ وعليه تثبَّنت خسارة الشَّيطان ومسؤوليَّة الإنسان في التَّعاطي معه من دون الإغفال عن دور الشَّفاعَةِ المحمَّديَّة .

حسمت النُّصوص إذن واتَّفقت على النَّهاية المحتومة للرَّمز الأظهر للشرِّ، إلَّا أنَّ حضوره عبر توابعه لم تكن بذات الحماس فقد أحييت الماسونيَّة ⁴ عبادة الشَّيطان وسمَّت إبليس (شبح النار) ويذكر أنَّه وفي وليمة ضمنت رؤوس الماسونيَّة في فرنسا سنة 1910م انبرى الماسوني اليهودي (لمى Lemmi) يدافع عن تواجد تلك القوى الشَّيطانيَّة القاهرة للإله الكهنة وساهمت الصَّحف الماسونيَّة في التَّرويج للشَّيطان باعتباره معبوداً بمعنى أنَّها استرجعت النُّسخة الإلهيَّة الشَّيطانيَّة الأولى . وجاء في مقال الجريدة الفرنسيَّة النَّاطقة باسم الماسونيَّة : "إبليس هو رئيسنا، وهو

¹ يوحنا [2 : 2]

² النُّحل [16 : 98 - 99]


³ المجادلة [19 : 58]

⁴ تعتبر الماسونيَّة الوليد الشرعي لليهوديَّة على رأي ويتعارف أعضاؤها بالأرقام الرَّمزيَّة السريَّة وتدور طقوسها وفي مجملها حول تاريخ اليهود وعاداتهم ، يعود تاريخ ظهورها إلى سنة 1535 م وقد ارتبط بـ (لوتر / وكلفن) وبنشوء المذهب البروتستانتي . وفي آخر القرن السابع عشر دعت المسيحيَّة الماسونيَّة هذا الاتجاه . وتحول الحديث إلى القُدَّاس الشَّيطاني

انظر: البرغوثي جبارة ، أتباع الشَّيطان، ص 71.

قائد الإصلاح البشري، هو المنتصر للعقل المطلق للحرية¹ "ولعل" إنجيل الشيطان" أو "إنجيل الأسود" الذي أورد اسم صاحبه الكامل كالتالي " أنتون هوارد سانتون ليفي"² رئيس كهنة عبادة الشيطان هو المثال الأظهر لذلك فقد اعتبر الإنجيل السند الطبيعي لنوايا أتباعه وتوالت طبعات هذا الكتاب وجاءت المبادئ فيه على قدر من الغرابة نسبة لأوصاف الشيطان في الكتب المقدسة فقد شكك في نفع العبادات وشجع على المتعة والشهوة والكسل بصريح العبارة واعتبر أن الشعور بعمق الكراهية هو أصل الشعور بعمق المحبة وناقض ما عرفت به الأناجيل من تسامح، فلا يجب في فلسفة إنجيل الشيطان إدارة خدك الأيسر للعدو التي ضربك على خدك الأيمن وفي ذلك تحلل من كل القيود والمحاذير المنصوص عليها في الكتب المقدسة عموماً من مثل التوسل إلى الله وخشيته أو من مثل اعتبار الشيطان مصدر خداع النفس . سجل الشيطان على ذلك عودته في مقابل الضمور الواضح حول نهايته في النصوص الكتابية .

الشيطان في النصوص الكتابية

من حيث التسمية	اليهودية	النصرانية	الإسلام
من حيث التسمية 	بلعيان أبولبون	بلعزبول التنين العظيم الحية القديمة إبليس الشيطان	إبليس الشيطان
من حيث الطبيعة 	طبيعة ضامرة متخفية ضبابية لا تدل على تجسد في كيان مستقل فهو الرمز	انفصال الجوهر الشرير عن الجوهر النقي واستقلالية الطبيعة الشهوانية	تفرّد الشيطان بطبيعة عدوانية / انفصال تام عن الطبيعة

¹ المصدر السابق ، ص 73 .

² <http://st-org/Full-Free-Coptic-Books>

الإلهية	الشيطنية	الأسطوري أو الملك الساقط / مع بداية بوادر انشقاق محتشم بعد السبي	
من حيث أدواره 	الشيطان رأس الخطيئة / تسلل إلى الجنة لإلحاق اللعنة الكبرى بالإنسان بغويته / استدعى ذلك الخلاص والفداء الشيطان صاحب مملكة الشر مما أدى إلى تراجع رئاسة الشيطان والاختيان	محرّض الرب ومجادلته في بليّة المصريين / تبعية يهوه للشيطان / غواية الشيطان لآدم وحواء	
من حيث مصيره 	انتصار العدل والمحبة في حرب نهاية الزمن الملائكية الشيطنية (بالصلب)	اعتبار الرأفة الأبدية لشعب الله المختار	
أكد القرآن النهاية المحتومة المقررة في صلب الخلق			

لاشكَّ أنَّ الشيطان سجّل دخوله الكوني في الرواية التوراتية للتاريخ ذلك أنّه مكّن الإله من انتحال صفة الخير المحض وبرّاه من إنتاج الشرّ أو المشاركة فيه بعد أن كانت الآلهة والبشر والطبيعة مرتبطة على نحو لا انفكاك فيه خاضعين لذات المكوّنات المادية بحيث لم يكن هناك تلك الفجوة الأنطولوجية بين عالم الآلهة والعالم الإنسيّ ممّا يحيلنا إلى شيء من الاختلاط بين المقدّس والدنيوي . ثمّ تداعت علاقات الوصل والفصل بين العالمين :

ففي العصر المحوري بمعنى من حالي 800 إلى 200 ق م صار الإنسان أكثر وعياً بطبيعته وظهرت الأديان والأنساق الفلسفية الحديثة لتربط أكثر بالطبيعة الروحانية وبرجالها العظام على غرار ما جاء في الكونفوشيوسية أو البوذية أو الهندوسية أو الزرادشتية التي تصوّرت الشرّ من النّاتج الحتمية للحرية المزروعة في خلق الله، كذلك كان الأمر في العقلانية اليونانية وفي الأديان الموحدة.

وجاء بعد ذلك الاستقرار زمن المرجعيّات النّقدية أو عصر ما بعد المحوري من حوالي 200 ق.م إلى 1500 م¹ وفيه توالى الثورات الفكرية والاجتماعية ولعلها أجبرت البشر على إعادة النّظر في مرجعيّاتهم وأساطيرهم بسبب الفصل الحاصل بين الميتوس واللّوغوس والنّاتج عن إعادة قراءة الروايات الأسطورية وآثارها المتصلة في النصوص الكتابية وتفسيرها ولم تعد الحاجة مقتضرة على إعطاء تفاسير عقلانية للرموز الغيبية بغاية تبريرها بل صار الأمر يتعلّق بإثبات عقلانية الدّين وإظهار بنائه المكين من العلم والمنطق وعليه حاول الفكر المسيحي اللّوثيري² التخلّص من تقديسه، وكان فعل رجال الدين تخليص الإسلام من الجمود والتعصّب وضيق الأفق وإن كان الأمر ظرفياً محفوفاً بالكثير من المحاذير.

وبداية من القرن 19 م وإلى حدود القرن 21 م عرفت الإنسانية ثورة الحداثة الغربية بنت اللّوغوس وكان لمثل تلك الحقائق الغيبية أن تعيد ترتيب أوراقها بمعنى كان عليها الإنسجام مع اللّوغوس وأبطاله عباقرة العلمانية وأدى ذلك إلى إهمال أنماط الفكر الحدسية الأسطورية والتركيز أكثر على الرّوح . إلا أنّ إمكانية البرهنة على الإله العظيم الذي أبدع الكون الميكانيكي الوجودي المعقد لم يكن خارج الاعتبار سيّما وأنّ الانغماس في المادّة أفقد الإنسان الإحساس بالأمان بحيث إنّ قمع الميتوس لم يكن الحلّ الأجدر في المسألة، وعليه رجّحت إمكانية أو معادلة اللّوغوس اللطيف بالميتوس .

إنّ الجدلية بين الشرّ والخير، بين الرحمان والشيطان ذلك الحوار المتصلّ الحلقات يحيلنا إلى مفهوم التّاريخ الدينامي أو المتحرّك الذي يسمح بوجود الشرّ في

¹ هذا ما ذهبت إليه الباحثة الأنثروبولوجية - آرمسترنغ كارين - موجز تاريخ الأسطورة - ترجمة أسامة اسبر - بدايات للطباعة والنّشر والتوزيع ، سورية ، الطبعة الأولى ، 2007 م ، ص 91 .

² د غيبه حيدر - هكذا تكلم العقل المفهوم العقلاني للدين - دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية 2003 م ، ص 63 .

مقابل الخير ويضع الإنسان طليقا أمام ثنائية طبيعته بمعنى أن الشيطان سوف يتابع خياره الشرير البدني وأن الخير سوف يتابع خيار الصلاح البدني .
وفي الإشارة إلى محورية حضور الشيطان ومظاهر الانجذاب إليه يذكر الفيلسوف "سيغموند فرويد"¹ أن الشيطان هو الصورة المجسدة للنفس التواقعة إلى الخلود والتسلط والامتلاك والمتعة، كذلك ينذر الإنسان نفسه إلى الشيطان حبا في تلك النزعات المتقدة فيه لذلك كان إبليس في العقيدة المسيحية شيطان القرون الوسطى الملاك الساقط المشترك في الجوهر الإلهي الأصلي النفيس وفي الهوية الإلهية ذاتها، بعد ذلك انشطرت الصورة إلى نصفين محبوب كل منهما بصفات متعارضة² ولعله ولتلك التناقضات والازدواجية في الطبيعة الإلهية البدئية تفاسير لدى "سيغموند فرويد" يعللها بنموذج الأب أو الصورة المنعكسة بين الله والشيطان في آن . وفي معرض حديثه عن محاربة الشيطان لأحد الزهاد³ يصف "سيغموند فرويد" ما يبدو لديه واضحا جليا من إستيهامات إغرائية تتحول ضرورة إلى إستيهامات عقابية ومنها إلى شعائر وطقوس يعبر بها المؤمن على ورعه وتقواه ومن ورائها يعبر عن الخوف المنبثق عن الضمير في حال الإهمال وبالتالي تكون الشعائر والابتهالات تدابير دفاعية وقائية من وجهة نظر فلسفية، فلسفة فرويد تحديدا من حيث التناول والمساءلة هذا ولم يكن الفيلسوف الألماني "آرثر شوبنهاور"⁴ بعيدا عن ذلك التصور من حيث اعتبار الرغبة أساسا للشر المطلق في إطار تباحته للمبدأ والنتيجة والعلة والمعلول والعلاقة بين الداعي والفعل، وبالتالي فإن أقصى ما يتصوره من خير في الوجود هو أن تقل شروره نوعا وتخف آلامه هونا ولأن الرغبة تتأرجح بين الألم والصبر وتتصل وبشكل ما بإرادة الخلاص، الخلاص من النزعات الجسدية

¹ فرويد سيغمون، إبليس في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1982م، ص 13.

² المصدر السابق، ص 22.

³ يبدو أن قراءة "فرويد" تعود إلى وثائق العهدين، ويبدو أن النسختين الأصليتين لهذين العهدين كانتا موجودتين لدى تحرير التذكار في محفوظات دير ماريالز وكانتا موجودتين كلتاهما تحملان تاريخا واحدا وهو سنة 1669م، وقد شكك المؤلف في خلوصهما من التديليس. انظر المصدر السابق، ص 35.

⁴ <http://ar.wikipedia.org>.

البيولوجية المتداخلة والبعد الفيزيولوجي والبعد السيكلولوجي والتأجمة عن أخيلة شخصية مطعمة بمعتقدات دينية. يقول الفيلسوف "نيتشه": "لم يكن لدى شوبنهاور أي رجاء، لكنه كان يريد الحقيقة"¹.

والأرجح أن لتلك الحقيقة علائق بتأويل الذات غير المنفصلة على تأول العالم فالروحانيات تسلم بأن الحقيقة لا تعطى للذات بشكل كامل وأن الذات بموصفها ذاتا لا تملك الحق والقدرة ولا الإستطاعة إلا بثمن تصبح فيه كينونة الذات نفسها موضع رهان ولعبة .

فمسألة بلوغ الحقيقة عند " سبينوزا "² مثلا ترتبط في صياغة ذاتها بسلسلة من الشروط والمطالب المتعلقة بكينونة النفس وسيادة الخيز، ومن وجوه تأولات الذات فكرة الخلاص من شرورها وهي من المسائل المتصلة بالفكر الفلسفي اليوناني عند الفيثاغوريين³ سيما باعتبار التداعيات اللغوية المشتقة من نجا، وخلص خلاص Salut، وأنقذ Sauver، تعبيراً عن مشاغل النفس ورغبتها في الإنعتاق عما يكبلها من أسيرة الجسد كذلك جاءت الروح المنقذة والمخلصة من الخطيئة الأبدية بما يمكن أن تتحمله من حالات الاستنفار والتعبئة والمقاومة من كل الهجمات والانقضاضات الشيطانية كما عبرت عن ذلك النصوص الكتابية وفصلت مقاومتها وتحصنها من مصائد الشيطان على قول " ابن الجوزية "⁴.

والواقع أن النظرة الماورائية التي سادت الفلسفة وباعتبار تفاعلاتها الواضحة على تأول النصوص وفهمها تبنت موقفا ثنائيا من الوجود عامة والإنسان خاصة حيث أنها أقامت تقابلا كلياً بين العلوي والسفلي، الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الصواب والخطأ، ومن ثمة بين الروح والجسد⁵ بحيث أنه وفي معالجة

¹ طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية 1997م ص 407 .

² فوكو ميشيل، تأويل الذات، ترجمة د / الزواوي بغوره ، دار الطليعة ، بيروت، الطبعة الأولى 2011م، ص 35 .

³ المصدر السابق ، ص 176 .

⁴ المقصود هو كتاب : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لشمس الدين بن قيم الجوزية .

⁵ الشنوفي علي، مقال الجسد، الجمعية التونسية للدراسات الفلسفية ، السنة العاشرة ، العدد الثاني عشر ، هيقل الفلسفة والتاريخ ، ماي 1992 م ، ص 116 .

مثنى الرّوح والجسد مال شقّ من الفلاسفة إلى تحييد تصوّراتهم عن الجسد المسكوت عنه من خلال اعتبارهم الرّوح مصدر الإنفعال والوعي وأصل الفضائل ولو أنّ " سبينوزا " مثلاً يتخذ موقفاً محايداً من كلّ مستويات الوجود، فالإنسان عنده واحد والرّغبة واحدة في الجسم والنفس معاً والروح في قراءته لا يمكن أن تكون "امبراطورية داخل إمبراطورية " ¹ وبالتالي يفضي شقّ من الفلاسفة ذات القيمة الأنطولوجيّة والأخلاقيّة — مع اعتبار اختلاف الجوهر — عليهما معاً فعندما تنفعل النفس فذلك يعني أنّ الجسد كان فاعلاً والعكس صحيح، فيما معناه تحييد الجسد عن الخطيئة واهتزال مقولة الرذيلة المتّصلة به في مقابل أفعال الرّوح المشحونة بطبيعتها الماورائيّة الغيبية .



صورة لتجسّدات الشّيطان في الميثيولوجيا وتحديداً في أساطير بلاد الرّافدين القديمة التي مثّلت الشّيطان في صورة التّنين الشرير عبر الصّراع الأبدي بين العدالة والظلم، بين الخير والشرّ .

¹ المصدر السّابق ، ص 120 .

لاشكّ أنّه لا يمكن الفصل مثل هذه المقاربات عن سياقها بمعنى عن المخيال الأسطوري الترمزي الذي صاحبها عبر حضور الشيطان وتمثلاته سيّما إذا ما أخضعناها إلى الفحص الأنثروبولوجي التطوّري في رؤية "تايلور"¹ مثلا الذي ضمن المسألة في كلّ مركّب من المعتقدات والقوانين والعادات المحاكية للشعوب من بدايات التاريخ البشري انطلاقا من المنظومة الرّمزيّة الأسطوريّة المثلثة لنوع من التفكير البدائي اللامنظم الذي يعدّ مفتاح التّصورات الموالية له من مثل الثنائيّة الأساسيّة للجسد والنفس وما لحقها من تمثّلات شيطانيّة معلّلة بالرأس مال الرّمزي للحقيقة الخياليّة التي تعدّ عند "جيلبير دوران"² مثلا قسما من الحقيقة في محاولة منه لإعادة الاعتبار إلى القيمة المعرفيّة والعلميّة للمتخيّل، هذا التّصور القائم على اعتبار مجموعة متنوّعة ومختلفة من المناطق الرّوحيّة والنّفسيّة والدّهنيّة المعزولة عن العقلانيّة مثلا كذلك أصبحت الحقائق المتعيّنة في الزّمن حقائق هشّة³ لذلك يربط بين العلامة المكتوبة أو الإشارة أو الرّمز وبين التّصوّر الدينيّ المستقبل لتلك الصّور وهو توجه قريب من التّمثّلات الأسطوريّة ذاتها التي تعتبر الأسطورة قصّة تقليديّة لا تشير إلى زمن محدّد بقدر إشارتها إلى حقيقة أزليّة يمكن أن تسجّل عبرها تلك الشّفافيّة بين التّصور وحركة الواقع، وعليه لا توجد أساطير سائبة لوحدها لأنّها جزء من الدّين لا موازية له ولا واقفة ضده⁴ هذا إذا ما أردنا تفسير العلائق بين تصوّرات الشّيطان في الكتب السّماويّة وأثر ذلك فيما عداها من نصوص دينيّة، لذلك لا يعدّ " خزعل الماجدي " أسطورة العالم الأسفل والأعلى في حكاية

¹ انظر كتابه ، بدايات التّاريخ البشري ونموّ الحضارة ، أنظر:

<http://arahimslapha.elphblog.com>

² انظر مقال -غالي شكري إلهام، أنثروبولوجيا الخيال، <http://www.nizwa.com>

³ تنعكس مثل هذه المقاربات في كتب دوران جليبير من مثل - الخيال الرّمزي -

⁴ الماجدي خزعل، سحر البدايات التّكوينيّة في ريعان فجره، ألتايا للدراسات والنّشر والتّوزيع،

سوريّة، دمشق، الطّبعة الأولى، 2011م، ص 302 .

الخليقة البابلية منفصلة عن مثل تلك الاعتبارات الآنفة الذكر المتصلة بالرؤية الكونية التعليلية لتعابير الشيطان .